فلسفة الحوار المبتور في شعر عبد الله البردوني

(زمان بلا نوعية)

د/ مروه محمد أبواليزيد

مدرس بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعه المنوفية

الملخص:

احتفظ البردوني بالشكل الشعري المشطر والمقفى إلا أنه ألبسه ثوب المعاصرة مستخدمًا العديد من التقنيات التي تمكنه من النجاح والوصول إلى غايته في قولبة النص الشعري داخل فضاءات الحداثة كالانزياح به – مثلًا – من هيكل الشعرية إلى هيكل السردية – على اعتبار ما يخص موضوع الدراسة – مستعينا في ذلك بمختلف عناصر السرد كالتشخيص وإدارة الحوار بشتى صوره، ولم يكتف بذلك ولكنه خلق لذاته عالمه السردي الخاص الذي أقامه على البتر الحواري بمقومات فلسفية لا تخفى على القاريء المدقق. ومن هذا المنطلق سعت الدراسة سعيًا حثيثًا وراء أشكال الحوار المبتور والكشف عن الأساليب التي تمكن من استجلاء البعد الفلسفي لاختيار البردوني لتقنية سردية الأصل وإعمالها داخل الشعر وإعماله الشخصي بها. فما الحوار السردي إلا محادثة تدور – بداية – بين شخصين أو أكثر مرورًا باحتدام الصراع بينهم حتى تتفاقم الأزمة وانتهاءً بامتثال تلك الشخصيات أمام انفراج تلك الأزمة أو عدمه، أما البردوني فقد عدل عن القاعدة الحوارية عدة مرات، تتمثل أولها في اقتطاع الحوار بإدارته بين الذات وجوامد الأشياء مرة وبين الجوامد مرة وبين المعنويات كالصمت مرة... وتتمثل ثانيها في التلاعب بطبيعة وغايات الأساليب الإنشائية كالأمر والاستفهام والنداء... وتتمثل ثالثها في إثبات قوامة الذات الإنسانية بإدخالها في حوار مع ذاتها لتنفض به عن نفسها غبار الزمن الدامس، وتتمثل رابعها وأخيرها في إدارة الحوار الذى أراد له الاكتمال والتحقق بين ذاته كمؤلف وبين قارئه ساعيًا بذلك إلى جعل الأخير المنسق الأوحد للنص المكمل لمبتوريته.

Abstract:

Al-Baradouni, retained the fragmented and rhymed poetic form, but he dressed it in the dress of contemporariness, using many techniques that enable him to succeed and reach his goal in molding the poetic text within the spaces of modernity, such as its displacement - for example - from the poetic structure to the narrative structure - in view of what is related to the subject of study - with the help of This is done with the various elements of the narration, such as characterization and managing the dialogue in all its forms. And he was not satisfied with that, but he created for himself his own narrative world, which he based on the dialogues, with philosophical ingredients that are not hidden from the careful reader.

From this point of view, the study actively pursued truncated forms of dialogue and revealed the methods that enable elucidation of the philosophical dimension of Al-Baradouni's choice of the narrative technique of origin and its implementation within poetry and his personal implementation of it. The narrative dialogue is nothing but a conversation that takes place - from the beginning - between two or more people, through the intensification of the conflict between them, until the crisis worsens, and ending with the compliance of those characters in the face of the breakthrough of that crisis or not. As for Al-Baradouni, he changed the dialogic rule several times, the first of which is represented in truncating the dialogue by managing it between the self and the inanimate things at one time, and between the inanimate objects at one time and between the inanimate objects like silence at one time... The second is represented in manipulating the nature and purposes of constructive methods such as the imperative, the interrogative, and the call... The third is represented in proving its continuity The human self by entering it into a dialogue with itself in order to shake off the dark dust of time, and the fourth and last of it is represented in managing the dialogue that he wanted to complete and verify between himself as an author and his reader, striving to make the latter the sole coordinator of the text that complements its amputation.

تمهيد:

اتخذ الحوار مفهومه المتكامل والأكثر تعقيدًا حديثا، فبالرغم من شيوع لفظة "حوار" في الكتابات القديمة إلا أنها لم تتعدى مفهومها المعجمي الذي يتلخص في كونه "حديث أو نقاش يجري بين شخصين أو أكثر"[١] أما حديثا نسجت له النظريات غربيًا وكثرت حول المصطلح الكلمات عربيا وتنوعت أشكاله بين الحوار الداخلي Monologue والحوار الخارجي Dialogue ... وتشابكت مفاهيمه مع الاصطلاحات القريبة منه مثل الجدال والمناظرة والتفاوض والنقد. ومن قبل، دخل إلى عالمي المسرح والرواية ولم يكتف بذلك، فبدخوله إلى الشعر صار الحوار هو المسئول عن بناء النص، أو إن شئنا قلنا إعادة بنائه. وفي النسق الشعري "يتكون أي حوار بين متحدث ومخاطَب من أرضية مشتركة هي بمنزلة نسيج من الأفكار المتبادلة يذوب فيها المرسِل والمرسَل إليه، ليصبحا شخصًا واحدًا متعايشين معًا في العالم نفسه. ومن ثم فإن التواصل أو الاتصال الحواري هو نسيج من المعطيات والأفكار التي يتولد عنها معطيات وأفكار أخرى إلى ما لانهاية، فكل من المتخاطبين هو منتج لأفكاره ومستهلك لأفكار الآخرين..."[٢] وفي ذلك ما يجسد آلية عمل الحوار داخل النص الشعري تحت إشراف المفعل الأساسي له وهو الشاعر نفسه باعتباره المرسِل الذي يبلور فكره من خلال مطالعته لفكر متلقيه وفاعلًا في الأصل لإحداث العكس الذي يتمثل في أن يبلور المتلقي فكره خلال مطالعته لفكر الشاعر ليظل الأمر على سيرورته حتى تحده الدلالة أو يتفوق أحدهما على الآخر في إنتاج النص.

يعد الحوار نمطًا تواصليًا – على الوجه العام – يقوم على تبادل الكلام والأفكار ووجهات النظر مُنتِجًا عن ذلك الاتفاق أو الخلاف أو الحياد. وتتجلى خصوصية الحوار الوظيفية في علوم السرد والقص، فهو أداة سردية أكثر من كونه أداة شعرية، ففي حال دخوله في الشعر يتحول من كونه وسيلة إلى غاية واجبة التحقق. فما بالك إن تلاعب الشاعر بالخواص الفاعلة في سيرورة الحوار ووسائل اكتماله، وعلى الأكثر، محور اشتغاله وهو (الحجاج)... وهنا

---

(١) يقول ابن منظور في لسان العرب "وأصل الحَوْر الرجوع إلى النقص. فالتحاور: التجاوب، وتقول كلمته فما أحار إليَّ جوابًا وما رجع إليَّ حويرًا ولا محورة ولا حوارًا أي ما رد جوابًا واستحاره أي استنطقه ... وأصل الحور الرجوع إلى النقص. وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. انظر لسان العرب: الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري الأنصاري الخزرجي(٦٣٠– ٧١١هـ)، المجلد الخامس، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الميرية، بولاق، مصر، ١٣٠٠هـ، (فصل الحاء ، حرف الراء) ، ص: ٢٩٧ – ٢٩٨.

(٢) الحوار مع الغرب آلياته – أهدافه – دوافعه: أ.د/ منى أبو الفضل، د/ أميمة عبود، أ.د/ سليمان الخطيب، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨م، ص: ٧٢.

تكمن الطبيعة الغامضة لاشتغال الشعر على عنصر الحوار، "ففي الأجناس الشعرية (بالمعنى الضيق) لا يستخدم الصوغ الحواري الطبيعي للخطاب بكيفية أدبية، لأن الخطاب الشعري يكفي ذاته بذاته ولا يفترض وجود ملفوظات الآخرين، خارج حدوده. إن الأسلوب الشعري هو، اصطلاحًا، مجرد من كل تأثير متبادل مع خطاب الآخرين، ومن كل "نظرة" نحو خطاب يصدر عن آخر."(١) وباعتبار الحجاج طبيعة تخص كل خطاب، وبكون الشعر أحد أشكال الخطاب، فالحجاج أسلوبية لا تنفك عنه ويأتي بها المؤلف كأسلوبية تنتمي لمنجزه الأدبي لتحقيق غاية تداولية تتمثل في الإقناع والتأثير وإن لم تتوافر عناصر الحجاج أو تكون فاعلة فيه .

لتقنية الحوار عند البردوني أهمية كبرى سعى منها إلى بلورة الواقع الذي عاشه وما يتخلله من قضايا سياسية واجتماعية، فقد جاء ساخرًا من الواقع أحيانا أو ساخطًا عليه وعلى قادته وساسته أو يائسًا منه ومتعطشًا إلى التغيير أو مجرد الوقوف على نوع لهذا الزمان الذي يعيشه رغما عنه. فهو شاعر تفاعلي ليس مع اللغة وحدها بل بمشاركة الأصوات الخارجية التي تصنع رموزها وتختمر أصواتها داخل ذهنه، فقد غلب على الكثير من قصائده البناء السردي بمختلف تقنياته مازجًا فيه بين التراث والحداثة ومختلقًا لذاته المعايير التي تخصه، فقد "اقتربت نصوصه من تخوم المسرح الشعري، مع قدر واضح من النفس الدرامي الذي يمنحها فضاءً تحوليًا سرديًا واضح المعالم"(٢)، ولأجل ماسبق، تسعى الدراسة لرصد واستقراء أشكال الحوار – كبنية سردية – عنده والتي لوحظ عليها سيمياء القصور الذي يُفقد الحوار – بالمعنى العام – هيبته بما يخدم الدلالة، فلم يعد حجاجيًا بل أصبح تقريريًا بل وترك لنا المجال للشك في تقريريته أيضًا، كما سيتضح لنا خلال درس صور الحوار المبتور في شعر البردوني.

تكشف كلمة فلسفة في معناها العام عن العلم (المعرفة) بحقائق الأشياء وتجيب عن التساؤل: لماذا تكون الأشياء على طبيعتها التي عليها؟ وعليه فإن البحث في فلسفة الحوار يعنَى بالكشف عن مسبباته ودواعيه والنظر وراء ضرورة وجوده على الطبيعة التي هو عليها وخاصة في حال انتقاله من مجال اشتغاله عمليًا في الحياة اليومية وأدبيًا في عالم القص إلى تواجده داخل النص الشعري، وهو ما يغير طبيعته بالضرورة. ومن الضرورة البحث في جذور هذا التغيير ومنطلقاته وما أفضت إليه من إحداثات جعلته ثيمة النص الشعري المعاصر، وبالأخص نص البردوني الذي نحن بصدد الاشتغال عليه.

(١) الخطاب الروائي : ميخائيل باختين، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط: ١، ١٩٧٨م ، ص: ٥٧ – ٥٨.

(٢) عبد الله البردوني الشاعر البصير (دراسات وأبحاث): مجموعة من الكتاب، سلسة الندوات (٢١)، الطبعة الأولى، دبي ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٩م، ص: ١٦.

الحوار المبتور:

الحوار المبتور هو الحوار الذي يخل بدينامية التواصل الصوتي التي تقوم على ضرورة الأخذ والعطاء، ومن ثم تتأتى استجابة أحد طرفي العملية الحوارية للطرف الآخر بدون فعل لغوي "فالأصل في الحوار الكلامي أنه تبادل ثنائي الاتجاه بين طرفين أو أكثر. يتناول كلاهما دور المرسل والمستقبل بأقدار متناسبة أو شبه متناسبة ولكن ليست متساوية بالضرورة بل تحتمل الخلل لدرجة ما، أما إذا تفاقم الخلل وبحيث يتحول طرف ما إلى مرسل فقط، بينما يتحول الآخر إلى مستقبل فقط، فلا تعد هذه العملية حوارًا لافتقارها للتبادل"[١]. وللحوار المبتور صور عدة، مثل أن يتفاعل الصوتان المتحاوران في توجهين مختلفين، وهو ما لا يدع مجالًا للحجاج الهادف. أو أن يلعب حديث الثاني دورًا تكميليًا لحديث الأول ومصدقًا عليه، أو أن يقوم أحد المتحاورين بسرد الحوار الذي دار بينه وبين الآخر، أو أن يأتي الحوار في شكل مونولوجًا (الحوار الداخلي)، أو أن يأتي الحوار على شكل طرح تساؤلات لا تلقى جوابًا ... ومن هذا التنوع اللانهائي لصور الحوار المبتور، كان لزامًا على تلك الورقة البحثية أن تستبين تلك الأشكال الحوارية في شعر عبد الله البردوني باعتباره نموذجًا شعريًا يتخذ من الحوار المبتور خاصة تميزه.

- **أنماط وغايات الحوار المبتور في شعر البردوني:**

لكل نص شعري غاية يريد المؤلف إيصالها لمتلقيه، ومن ثم يبحث الأول عن الأسلوبية التي تساعده في تحقيق مبتغاه والذي يتخطى الغاية الإمتاعية إلى الغاية الإقناعية، كأسلوبية السؤال أو الحوار أو الجدل والحجاج... وغير ذلك الكثير، وقد اتخذ عبد الله البردوني من أسلوبية الحوار عامة والمبتور خاصة سبيلًا يجعل لشعره أيديولوجيته الخاصة؛ حيث تستحضر المخاطَب وتقصيه في آن واحد. وهنا تكمن فلسفته في اختيار الحوار بشتى صوره لتمثيل العلاقات الجدلية بين أطراف الوضع القائم ، وتقمص شخصياته، واستكناه أعماقها والتغلغل في مشاعرها وأفكارها وتصويرها من الداخل جاعلا الحوار المبتور أداة لتسليط الضوء على نظرته وبلورة موقفه الواحد وجعله الأوحد وتهميش ما دونه، "فإن وجهات النظر الفلسفية للمؤلف نفسه أبعد من أن تبرز من بينها جميعًا لتحجب خلفها كل ما سواها"[٢] فقد امتزج صوت البردوني بصوت أبطال حواراياته لتأتى كلمة البطل (الشاعر) محطمة للحوار

(١) حوار الحضارات: المفهوم والمقومات: عبد الملك منصور المصعبي، ضمن أعمال ندوة موقع الإسلام في القيم الكونية وحوار الحضارات، تونس، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعة الزيتونة، ٢٠٠٥م، ص:١٨ – ١٩ .

(٢) شعرية دوستويفسكي: ميخائيل باختين، ترجمة: د/ جميل نصيف التكريتي، مراجعة: د/ حياة شرارة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص: ٩.

بمعناه السردي وإعطاء القيمة الدلالية الكاملة لكلمات الشاعر مجيبة عن التساؤل: ما الذي سيحدث لو لم يكن البطل موضوعًا لكلمة المؤلف نفسه؟

يمكننا مع البردوني رؤية الحوار خارج عالمه السردي، وفي حال انتقاله للشعر، من منظور مخالف لكونه حديث يدور بين شخصيتين أو أكثر إلى كونه رسالة موجهة من مرسِل إلى مرسَل إليه – على حد تعبير رومان جاكبسون في نموذجه التواصلي – ومن ثم يكون المرسِل هو (المؤلف) والمرسَل إليه هو (القارىء)، وللغة كل منهما وظيفتها المنوطة بها داخل النص ليحققا سويًا شعرية (حوارية) الرسالة (النص الشعري)، أو لتتفوق أحدهما على الأخرى في هذا الدور فارضة هيمنتها على رسالة بعينها، مع أخذ المساهمات الوظيفية اللصيقة بعناصر التواصل الأخرى بعين الاعتبار. "وتهدف الوظيفة التعبيرية Expressive (الانفعالية)، المركزة على المرسِل، إلى أن تعبر بصفة مباشرة عن موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه، وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين صادق أو خادع"(١). حيث تتوجه لغة المرسِل إلى المرسَل إليه لتتحول بالوظيفة اللغوية (اللسانية) من التعبيرية إلى الإفهامية Conative "فيجد التوجه نحو المرسَل إليه تعبيره النحوي الأكثر خلوصًا في النداء والأمر اللذين ينحرفان، من جهة نظر تركيبية وصرفية وحتى فونولوجية في الغالب، عن المقولات الاسمية والفعلية الأخرى"(٢). فملفوظات المؤلف المختارة بعناية لابد أن يكون لها نشاطًا سيميوطيقيًا بل وتداوليًا خالقًا ومحدًا للدلالة داخل النص وعند قارئه.

بعد التسليم بأن الحوار ما هو إلا رسالة موجهة من مرسِل إلى مستقبِل يبقى لدينا الحديث عن موضوع الحوار (الرسالة) الذي تشتغله اللغة محفوفة بالأسلوب وتهتم هذه اللغة بإتمام التفاعل الكلامي بشتى صوره مستخدمة الألفاظ وشبيهاتها من رموز وإشارات، بيد أن اللغة هي الوحيدة القادرة على التزام قواعد الحوار أو خرقها والإخلال بها وخاصة حال انتقال تقنية الحوار من كونها عادة حياتية يمارسها الناس يوميًا إلى كونها أداة أسلوبية يمارسها الروائي والمسرحي والشاعر داخل منجزه ويوظفها لخدمة موضوعه. وبتركيز الدرس – الذي نحن بصدد الاشتغال عليه – على إدارة البردوني حواراته الشعرية بين ذاته كمرسل ومتلقيه تراءى لنا ضرورة الوقوف على الأشكال الحوارية التي تبدأ وتنتهي عند المرسِل سائرة في تواترية تبدأ عند تعددية الاستفهام والتساؤلات والنداءات والأوامر والنواهي ومناجاة الذات والآخر وتمر بمحاورة ما لا نتخيل محاورته ودعوة الصمت والموت... حتي تنتهي بفلسفة السكوت التي تُغَيِّب وظيفية الرسالة الحوارية في نموذجنا الحواري الذي شيدناه على غرار نموذج جاكبسون التواصلي:

(١) قضايا الشعرية: رومان جاكبسون، ترجمة: الولي محمد ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م، ص: ٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٩.

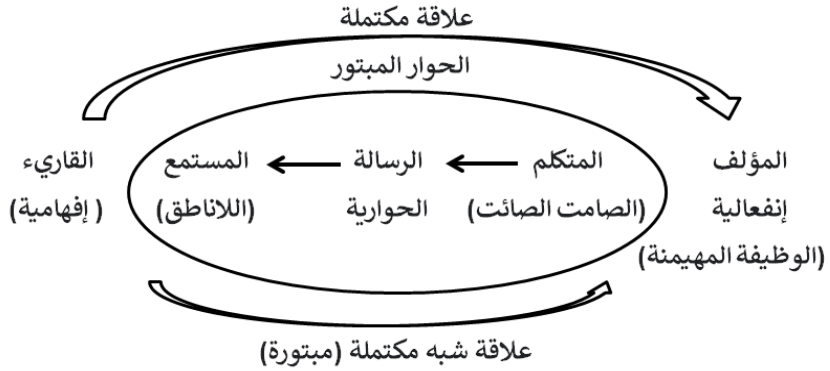

١- الاستفهام بين التجاوز والتقرير:

تشيع في لغة الشاعر أساليب الاستفهام مجسدة إحساس الشاعر بالدهشة وربما الفجيعة والحيرة والسخرية والتهكم...، حتى ليغدو الشاعر بها سؤالاً كبيراً أمام ملامح الزمن المعاش، فها هي رحلة التيه الذي يتبعه التساؤلات التي لا تلقى جوابًا، مع سير السؤال في حلقة دائرية، فعندما تلوح الإجابة يداهمها التساؤل الجديد، فمنه وإليه يعود الشاعر، فتتفاقم الأسئلة (أين – هل – كم – مَن) وتتقاعس الأجوبة، ويبرر ذلك أن المخاطَب ما هو إلا الصمت، فالسؤال في ظاهره يدل على تقرير ضمني بشكوى الزمن والشعور بالغربة داخل اللاوطن – على حد ما يقصده الشاعر – وما أدمى الأجوبة التي تبلور هذا الشعور: ففي (مُغنِّي الغبار)[١] يقول:

إلى أين؟ هـــــذا بذاك اشتــبه ومن أين يا آخـر التجربـــــة
إلى أين؟ أضنى الرصيفَ المسيرُ وأتعبت الـــــراكبَ المركبـــــة
وعن كل وجـــــه ينوب القنـــاع وترنو المرايـــا كمستغربـــــــة
إلى أين، مِن أين؟ يدنـي المتـاه بعيدًا، ويستبعـــد المقربـــــة
سؤال يُولي، ســـــؤال يُطـــــل ومن جلدها تهرُب الأجـــوبة
ويظـــــــمأ إلى شفتيه النـــداء وتـــأتي القناني بلا أشـــــربة

.....

ويأتي الســـــؤال بلا دهشـــــة ويرتد كالهـــــــرة المتعبـــة

(١) ديوان عبد الله السبردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: مغني الغبار)، من ديوان: زمان بلا نوعية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص: ٨٢١.

السؤال في الأصل ممارسة يومية لا نعبأ بتوقيت أو كيفية إصدارها قدر اهتمامنا بما وراء ضرورة إصدار هذا السؤال أو غيره على هذه الشاكلة أو غيرها، وقد سبق أن ذكرنا أن الفلسفة في الأصل تبحث وراء ماهية الأمور، ولا تتأتى تلك الماهية إلا بطرح التساؤلات ففي السؤال يمثل منطق الفلسفة، فقد أعدم سقراط وهو يدفع عن منطقه القائم على الاستجواب والتساؤل قائلًا: "حسنًا أيها الأثينيون، عليكم الآن أن تقرروا إذا كنتم ستبرؤني أم لا. أيًا كان قراركم افهموا أنني لن أغير أبدًا طرقي، حتى لو كان عليَّ أن أموت عدة مرات، فإن الحديث عما يجعلنا طيبين والتساؤل مع نفسي والآخرين، هو أعظم عمل يقوم به الرجل. فالحياة بدون تساؤل لا تستحق العيش"(١) هذا عن أهمية السؤال ولكن يبقى لدينا الأهم ألا وهو البحث في التحليل المنطقي واللغوي للسؤال الذي يجعل من السؤال متسع لأسئلة عديدة تنتج دلالات ولا تنتج أجوبة. فالأسئلة لا يتعلق وجودها حتمًا بوجود الأجوبة، وهنا يتجاوز السؤال مهمته الاستفهامية (طلب الفهم) – التي أقرها أهل البلاغة – وهي ما تستدعي جوابًا، إلى دلالات تخدم أسلوبية خاصة بالنص ومنتجه كالإثبات أو النفي أو التعجب أو الاستنكار أو الرمزية... وهو ما يضفي بظلاله على القارىء الذي يرنو تائهًا متأملًا التساؤلات التي تقر الواقع المُعاش وبالأخص في حال تواتر الأسئلة دون أجوبة. وهنا يأتي السؤال: أهذا كل ما يتعلق بأسئلة البردوني؟

إجابة عن هذا التساؤل نرى أن هناك الكثير ليقال حول سؤال البردوني فقد أطلق عليه الدكتور عز الدين إسماعيل (شاعر الأسئلة)(٢) تلك الأسئلة التي لا تقودنا إلى إجابة واحدة صحيحة، فالقصيدة موضوع حديثنا تساؤلات، والتساؤلات جاءت في شكل حواري متخيل يهدف منذ البداية إلى إقصاء المخاطَب عن العمل بمقتضى الغاية المحورية في القصيدة، وهي الأقرار بأنه لا فائدة فالصارخ دماء والمنصت ريح وأتربة، ومن ثم تأتي الإجابة – إن جاءت – من غير جنس السؤال.

لماذا يغني هشيم الدمـــــــــــاء وتصغي له الريح والأتربـــــــــــة؟
هل السامعون بلا مسمـــــــــــع؟ أو أن المغني بلا موهـــــــــــبة؟
هل السلمُ تبغي أو الانتصـــــــار؟ سمعت الإذاعات والمأدبـــــــــــة

(١) خطبة سقراط الأخيرة (أول من أعدم في التاريخ بسبب أفكاره): روان الفريح، نشرات ثمانية البريدية، ٢٠١٨م. انظر: فلسفة السؤال: ما هو السؤال؟: لاني واتسون، ترجمة: مي العصيف، تحرير: عبير الغامدي، أثارة، أكتوبر ٢٠٢٠م، https://atharah.com/what-is-a-question

(٢) البردوني (شاعر الأسئلة): د/ عز الدين إسماعيل، مجلة الكويت، العدد: ٢٢٧، سبتمبر ٢٠٠٢م، https://www.albaradouni.com/

تغنوا على النخب حتى الجنــون وماتوا على جثة المطـــــــــــربة
وهل قلت شيئًا؟ صباح الجمـــال أجابوا سكرت بهذي الهـــــــــبة
وما رأيك الآن فيما جـــــــرى؟ أحب الدرامية المرعـــــــــــبة[١]

في بلوغ الغاية التقريرية وظيفتها ما يجعلنا نستشعر بأن الشاعر لا يطرح سؤالًا من الأصل رغم استطلاعنا للتركيب اللغوي لأسلوب الاستفهام المكون من أداة الاستفهام والمستفهم عنه وعلامة الاستفهام، وهو البديهي، وفي موضع آخر تغيب البديهية ويغيب التركيب الاستفهامي ومع ذلك يستدعي المتلقي صيغة الاستفهام.

ليت شعري يا (ثريا) مـــا الـــــذي سوف يـــأتي بعد هذا؟ ليت شعـــــــري
ربما يـــــأتي الذي يشعلـــــــني ربما يأتي الذي يخـــــمد جـــــــمري
ربما فـــــاجأني ما أشتـــــــهي ربما لاقـــــــــيت أزرى بعد مزري[٢]

وهنا ينتقل الحوار من حالته الديالوجية إلى المونولوجية التي تتجاوز التواصل نفسه إلى ما ورائية التحدث، فتتخفى صيغة السؤال وراء تحير السائل فيميع السؤال في تكرارية (ربما) كبديل عن الأداة (هل) وتميع معه الإجابة إن وجدت. وهنا تتلاعب اللغة بعقلية القارىء حيث تسحبها من الحال إلى ضدها فيصير السؤال عندها تقريرًا والحقيقة تدفعها إلى إعادة صوغها على هيئة السؤال؛ ليصبح السؤال لديها أساسًا لطريقة العمل والتفكير.

وفي موضع آخر يقول البردوني:

لماذا يبرق الأدجـــــــــى؟ لماذا يخمد الأنصـــــــع؟
لماذا أعشـــب المبـــــــكى؟ لماذا أجدب المرتـــــــع؟
لماذا الدرُّ في الأعـــــــناق والأحجار في المقـــــلع؟
وهل هذا سوى هـــــــــذا؟ من المخدوع والأخـــــدع؟
لمـــــــاذا أرتجي أمـــــــرًا ويأتي عكسه أســـــــرع؟
وأين الفرق بين القـــــــبر والملهى؟ من الأفظـــــع؟[٣]

(١) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: مغني الغبار) من ديوان: زمان بلا نوعية، ص: ٨٢٢.

(٢) المصدر السابق، (قصيدة: لعبة الألوان)، ص: ٨٢٥.

(٣) المصدر السابق: (قصيدة: بين بدايتين)، ص: ٩٣١.

لإطلاق السؤال فلسفته الخاصة به، حيث يعتمد على الركن الفلسفي الرئيس وهو الفكر ومن ثم يولد الفكر الذي يتمثل في تواترية طرح الأسئلة الجديدة التي تكمن بداخلها الأجوبة الشافية رغم مجيئها في صيغة السؤال، وهنا تكمن فلسفية سؤال البردوني ذات الطابع الإشكالي – من جهة – والجذري – من جهة أخرى – ففي الأول يجاب عن السؤال بسؤال لضمان استمرارية فلسفته، والثاني يبحث في العمق وراء مسببات ظواهر الأشياء والأحداث والوقوف على القناعات الخاصة التي تمكن الذات من قبولها.

الأصل أن ينتفي الشيء بوجود ضده وفي الشاهد ينتفي الشيء وضده ، فكلما جاء الضد ليثبت جاء ضده ليخفيه ... وهو ما يجعل الذات تقع بين شتات السلوك والفكر، فمع تنوع المتضادات تكتفي الذات بمجرد التساؤل عما وراء حدوثها (لماذا) وهي الصيغة الإستفهامية الأصعب التي تحتاج إلى طول تفكر، فتستبدلها الذات بالأيسر (هل – مَن) ولما لم تكن هناك إجابة تعود الذات ثانية للكشف في الماورائيات مستخدمة (لماذا – أين) فكلما لاحت النهاية تجذبها إليها البداية:

أمام بداية المطلـــــــــع وخلف نهاية المقطـــــع

تموت، وتجـــــــــــتدي موتًا لتفنى فوق ما تطمع

.....

ومن بَـــــــدءٍ بلا بَـــــدءٍ تُطلُّ إثـــــــارة أبـــــرع

٢- احترافية تهميش النداءات:

يخاطب البردوني في حواراته شخوص مجتمعه بما يتلمسون جميع أطرافه وهو ذاته ما يسبب لهم جميعًا القلق ومن هنا تتأتى ثقته فيهم جاعلًا إياهم مشاركين له في تلقي هذه القضية أو تلك "فالجزء الضمني للتلفظ لا يشكل أكثر من أفق العناصر الزمانية – المكانية والدلالية والقيمية المألوفة لكلا المتحاورين"[١] فما دور النداءات المبتورة إلا أن يحاول الشاعر مع شخوص حكيه من جهة ومتلقيه من جهة أخرى الوصول إلى كيفية التصرف فيما يواجهنه جميعًا، ولا يهم إن باءت بالنجاح أو الفشل.

(١) ميخائيل باختين (المبدأ الحواري): تزفيتان تودوروف، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٦، ص: ٩٠.

من تنادي؟ احترف صمت القناعة عندهم ضدَّ النداءات مناعـــــة
هكذا قالوا ... فقل هل مانعـــــوا أن يكونوا للملايين بضاعـــــة؟
سادتي لي تجربات، جربـــــوا ! لم تخولنا القوانين استطاعـــــة
أسفًـــــا عفـــوًا، يـــولي هـــازئًا يحتسون الشاي في أهنا وداعة[١]

في قصد البردوني إلى استخدام الصيغ الحوارية كالأسئلة والنداءات وإن كانت غير مكتملة محاولة لإبقاءنا كموجودات يراها تهرع إلى سكون الموتى وتصل منه إلى أعلى حدود القناعات والرضا وتدثيرها بوشاح القدسية والعقيدة، فالمتسائل المتحاور في المعتقدات القارة عندهم مارقًا وخارجًا على حدود الجماعة، ولكن الحوار ينتج الكينونة ويبقى الإنسان الناضج طفلًا يمكن تحميل عقله بما يثريه ليحسن التصرف في أجم الأمور وأحلكها وتنأى به عن التحجر واللامبالاة

رؤانـــــا وحـــــبات أجفـــــاننا حصى، تحت أقدام جيش الدفـاع
فـــــيا (أمَّ كلثوم) غني رصـــــاصًـــا يُحنِّي رصاصًا، ويشوي صـــــراع
ألـــوف كيوسف تحت الســـــياط بـــــلا تهمة باستراق (الصواع)
ويـــــا (قيس) ليلى على كل سُـــوق تموت سفاحًـــــــا تُجَرُّ اقتلاع
ويـــــا (أحمد بن الحسين) انتـــــبه فـ (كافور) ما زال حيًا مطـــــاع
ويا (حافظ) اغضب غدت (دنشواي) بمـــــــصرَ العزيزةِ كلِّ البقـــاع[٢]

في أثناء التفاعل الحواري يتكشف جوهر المتحاورين ولكن البردوني يرفع عن عاتق محاوره هذه المهمة ويلقيها كاملة على ذاته مرة وهو يحاور شخوص حقيقيين ومرة وهو يجسد من كائنات وكينونات أخرى شخوص أيضًا. ولعلنا في هذا المقام نستحضر تمييز بوبر بين نوعين للعلاقات[٣]، الأولى: علاقة أنا – أنت (I – Thou) وذلك في علاقة البردوني بقارئه وكلاهما فاعل في الحوار على طريقته، والثانية: هي علاقة أنا – هو (I – It) وتنشأ بين الإنسان والأشياء كعلاقة الإنسان بسيارته مثلًا، تلك العلاقة التي تنتهي بتعطلها عطلًا لا حل له، أو بين

(١) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: مكتبيون .. والبطل، والشاهد)، من ديوان: زمان بلا نوعية، ص: ٨٦٥.

(٢) المصدر السابق، قصيدة: أغنيات .. في انتظار المغني، ص: ٨٤٣.

(٣) انظر: مارتن بوبر وعلاقة "أنا وأنت": كيف ترشدنا أفكاره في رحلة الشفاء النفسي: ماثيو مارتن وإيريك كومان، ترجمة: دعاء شاهين، أكتوبر ٢٠٢٠م https://mana.net/ بتصرف.

الإنسان وإنسان آخر كسائق التاكسي وتنتهي تلك العلاقة بمجرد وصول الراكب إلى حيث يبغي إلا إذا نشأت بينهما علاقة على المستوى الإنساني بعيدًا عن الحد الاستعمالي، والبائن على هذه العلاقة أنها محدودة بغرض الاستعمال، بمعنى أن الطرف الآخر في هذه العلاقة ينظر له على أنه وسيلة لغاية معينة، وكل معنى يأخذه في هذه العلاقة إنما هو نابع من طبيعة الاستعمال هذه. وتكمن نقطة التحول لدى البردوني في قصدية اختيار السواكن وإبقائها عناصر قائمة في الحوار وفاعلة فيه إن سلبًا وإن إيجابًا، فهو لا ينهي العلاقة عند السكون كما فعل بوبر ولكنه يبتدأها، فما الحال إذا كان المخاطَب في الأصل ساكنًا؟

في اعتماد البردوني النداء في الشاهد السابق قصد إلى إثبات حقيقة لا نهائية التواصل الحواري بالرغم من طبيعته المحايثة داخل الجنس الشعري إلا إنه أراد له طبيعة دينامية فأقام حوارًا بينه وبين من هم ليسوا من عناصر زمنه بكل مرونة، وذلك لافتقاده أمثالهم وشدة ترياقه إلى اللقاء بهم وإخبارهم عما يحدث في زمانه بعدهم من ظلم وسفح وانتهاك، ولكن هل من ملبٍ؟ فمع يقينية عدم جوابهم تستقر لدينا حقيقة الحوار المبتور، ومن ثم تتأكد تقريرية أساليب البردوني وإن تنوعت صورها، وإن كانت في حد ذاتها نتيجة للحوار، أراد الشاعر أن يبلغها متلقيه.

كان هذا ما جرى ... ماذا سيجرى؟ ما الذي ياليل؟ سل أوجاع فجـــري
إنما أرجوك، قـــــل لي ما اسمه؟ هل له رائحة – ياليل – تغـــــري؟
لا تشـــــم الآن؟ قـــل مالـــونه لعبة الألوان، أضحت لون عصري
كيف يبـــــدو؟ كل ما ألمحـــه أن شيئًـــا آتيًا يشـــقي ويثـــري[١]

في حوار البردوني للموت والليل والقبر والصمت وتشريع الحوار بينهم كموجودات، يظهرهم كأناسي كاملة لها معنى وقيمة واعتبار متجاوزًا ضرورة مفاعلتها في الحوار، هنا تحين الفرصة لكل منهما بالتعرف على الطرف الآخر، وهنا فقط يمكن أن تنشأ علاقة الحوار التي تتخطى مجرد التحادث. فالمحاور كائن حائر غير مستقر ومن ثم يرى انعكاسه في الطرف الآخر؛ فعلاقة التلقين في التعليم مثال على هذه العلاقة "الملقِن لا يرى في الملقَّن إنسانا كاملا يستطيع الاستقلال بتفكيره. لا يراه سوى وسيلة يحقنها بالأفكار التي يؤمن بها فالآخر هنا ليس إلا مشروع تابع ومنفذ

(١) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: لعبة الألوان)، من ديوان: زمان بلا نوعية، ص:٨٢٤.

للأفكار المعدة سلفا."[١] فالحوار عند البردوني مغامرة نتائجها معروفة منذ الشروع فيه وهنا نتيقن كونه حوارًا مبتورًا يقوى فيه المحاوِر (الشاعر) ويضعف فيه المحاوَر الذي يدمر الخوف هويته حتى انتفى فيه أبسط ما يملكه وهو ملفوظه وأورثه الخرس رغم محاولة البردوني وضع تأمينات تضمن للحوار وجوده وإن لم يكتمل، فقد اتخذ البردوني من تقنية الإسماع وسيلة لتأمين واستمرارية الحوارية التي ينتج شخوصها داخل النص وإن أقصى الطرف الآخر أو أجبره على التسليم ساعيًا في ذلك نحو إقامة أفكار وتبديد أخرى.

٣- حوار الـ (ما بين):

يذكرنا هذا النوع من الحوار بعلاقة (أنا وأنت) عند بوبر – التي سبق أن أشرنا إليها – وفيها تكون قيمة العلاقة أقوى من المساهمات الفردية للمشاركين فيها، فهي تنبني في الأساس على الحضور والتفاعل المكثف الذي يقوم على وثب الذات في تجربة الآخر مع الحفاظ على كمالية الوجود الإنساني الذي لا يتجزأ من السياق الاجتماعي والتاريخي الجامع لشخوص العلاقة التواصلية (الحوارية)، ومن عواقب هذه العملية أن يتوجه أحد طرفي الحوار بتوجيه الآخر وهنا يتبلور البتر الحواري الذي يعد ميزة وليس عيبًا. هنا تأتي القراءة لتجيب عن أسئلة عدة: كيف يفكر كل طرف في الآخر؟ من الذي يتحدث الآن؟ ماهي مرجعية الكلام المؤدى عند قائله وسامعه؟ ما هي الأصداء الناتجة عن معطيات الحوار؟ وبالإجابة عن هذه التساؤلات تتجاوز القراءة كل معايير التواصل وتتجه نحن تفسير الظواهر المنتجة لهذا الحوار كالذات في حوارتها الداخلية الناتجة عن عدم الثقة في كل ما هو خارج عنها، ومن ثم تُسائل نفسها عن الواقع الذي تقترح وتحبذ وجوده، وكذلك حوارات الذات الخارجية التي تعيد لذاتها الثقة من جديد منتجة المعرفة بجميع فئات المجتمع والواقع المعاش وباحثة عن طرق بناء عالم جديد أكثر إنسانية.

الألوان الشتى امتزجـــــــت شيئًا يهذي ما ألـــــــــواني
ما شكلي الآن؟ وكـــــــالات مِن فوقي، يلبسن كـــــــــياني
مِن أين أتيت؟ وأين أنـــــــا؟ أأتيت؟ أتى غير مكـــــــــاني
ماذا؟ ما اسمي؟ أهـنا داري؟ أم سجني وأنا سجـــــــــاني
جلدي من (لندن) من (روما) وقوامي، (كوز جهـــــــــراني)

(١) مارتن بوبر وفلسفة الحوار: عبد الله المطيري، الشرق الأوسط (جريدة العرب الدولية)، (١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م) https://aawsat.com/home انظر مارتن بوبر (حياة الحوار): موريس فريدمان، مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٥٥، ص: ٨٥.

لم لا أختار مقاييـــــــــسي؟ وأرى وزني، من ميـــــــــزاني؟
أو ليست لي عيـــــنان، أرى – كالنـــاس – ورأس ويـــدان
أأنا نفسي، وســـــوى نفسي؟ أبدو غيريًا، وأنـــــــــــــاني[١]

ينتاب حقيقة الوجود الإنساني داخل مجتمعه الشك – وإن أردنا التدقيق قلنا الزيف – فهي بحاجة إلى التأكيد على وجوديتها وذلك بإخراجها من مجرد التواجد السلبي الذي يقتصر على الانغماس في الحياة الروتينية التي تخلو من أي مضمون أو غاية وهو ما سماه الفيلسوف الوجودي الألماني مارتن هيدجر (الوجود الزائف) على عكس (الوجود الإنساني الحقيقي)[٢] الذي يحيا فيه الإنسان باحثًا عن هويته وإثبات حقيقة وجودها وسط زحام وقلق الوقائع اليومية المُعاشة.

ردي يا ضوضاء المـــوتى صوتي بُنَيَّة أحـــــــزاني
الكأس وريد مقطـــــــــوع من زندي، من ذا أسقاني؟
يا وهج الزيف أعد بصـري يبست عيناك بأجفـــــاني
أختار أنا – يا زيف – يدي تشكيلي، وجهي ولســـاني
أدري أني أحد، أهـــــــوى وأعادي ، أملك وجـــداني
أعـــدو عن فلسفة، أمشي عن رأي هذا من شـــــاني
أجري، أدمي، لكن أجـــري وأغني، لكن وأعـــــــاني
آسى، أدري ما مأســـــاتي أهنا، أدري أني هـــــاني
من يجهر أني كـــــــذاب؟ من يحكي عني هذياني؟[٣]

هنا يجسد الشاعر الموتى والزيف كشخوص فاعلة في الحوار بالشيء وضده فمن أين يأتي ضوضاء الموتى؟ ومن أين يأتي وهج الزيف؟ فالإجابة تقريرية بالنفي، ولكن الشاعر يرى ذاته التي لا تثبت على حال في ظل

(١) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: وجه الوجوه .. المقلوبة)، من ديوان: زمان بلا نوعية، ص: ٨٣٤.

(٢) انظر: التقنية – الحقيقة – الوجود: مارتن هيدجر، ترجمة: محمد سبيلا وعبد الهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص: ١٢ وما بعدها.

(٣) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، قصيدة: وجه الوجوه .. المقلوبة، من ديوان (زمان بلا نوعية)، ص:٨٣٦.

الحرب والقمع ومضاعفاتهما، واقعة بين الهوى والعداء، وبين الغِناء والعناء، وبين الأسى والهناء، فهو إما إلى وجود وإما إلى عدمية، ذلك أمام الزيف الذي يمثله جميع من حوله من شخوص عصره فقد اتخذ منه محاورًا قاصدًا إلى أن تنتهي المحاوره بانتفاء الأخير بالحجة القوية، وإن كلفه ذلك البحث عن الشبيه له في عالم آخر؛ ليبث ذاته فيه فيذهب لعالم الموتى ويقر دون تردد أن لهم صوت قد يرتفع لحد الضوضاء وأن للزيف الذي لا مجال لرؤيته وهج ملفت للجميع ومع ذلك كله – الذي قد نعده من الخرف – فمن يستطع أن يتهم مقولاته بالهذيان؟ فما هو إلا شخص لايرى حوله إلا ما ينفي وجوده ولكنه يحارب لإثباته وإن هلك وإن دفع به ذلك إلى البحث عنها في الوجود الزائف وهمًا والمتحقق وجودًا وهو عالم الموتى، فما من شخص أدرك الحقيقة كاملة قدر إدراكهم.

٤– حوار البين بين:

الذات نتاج لمجموعة من الأنظمة الإجتماعية والنفسية وهي تعني سلوك الفرد في التعبير عن ذاته، في ضوء ما سبق، وتقديمها للآخرين، ولكن بشروطه الخاصة فهي المحرك الأول للكون والموجودات وليس العكس باعتبار مقولة سقراط – الفيلسوف الإغريقى – "اعرف نفسك بنفسك"[١]، ومن هذا المنطلق يمتد البتر الحواري محولا العلاقة من (أنا – أنت) المشخصين من غير عالم الموجودات إلى حوار البين بين، وفي هذا الشكل من الأشكال الحوارية يُنشيء البردوني علاقة من نوع جديد تقوم بين (أنا – أنا) تتوحد فيها الذات مع النفس – بموازاة علاقتي بوبر السابقتي الذكر – وفيه تسعى الذات للخلود وسط زحام اللاموجودات.

ودخلتني، أصبحت من أثري — مثلي جدارًا حزنه جـــــــزعي
أوَمَا اصطرعنا؟ لم تعد طرفًا — بيني وبيني شب مصطـــــرعي
ما كنت تطمع قبل خلطــتنا — واليوم تحكي أنت عن طمـــعي
أنت اخترعت شقاوتي، وأنــا — أبدعت في إقلاق مخـــــترعي[٢]

(١) الفلسفة الإغريقية: عبد الرحمن بدوي، مطبعة المعارف، بيروت، ١٩٩٨، ص: ٢٢. انظر أيضًا: مفهوم الذات لدى الفلاسفة: سعد عزيز دحام، الحوار المتمدن، ضمن محور: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، العدد: ٣٣٥٧، ٢٠١١م

(٢) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: بين الجدار وجدار)، من ديوان: زمان بلا نوعية، ص:٨٨٧.

فبعد تمثل الحوار بين جدارين – يمثل أحدهما الذات والآخر جدار حقيقيي – ترى الذات ضرورة انسلاخها من هذا المقام منتصرة لوجودها دون الاستسلام لأي قوى أخرى على الأرض، وإن دخلت مع نفسها في صراع انتهى بالفرقة وعدم الاتفاق (بيني وبيني شب مصطرعي) وهذا من قبيل تقدير الذات التي تمتلك العقل والمنطق وبهما تسعى لاكتشاف حقيقة الموجودات وتؤثر فيها ولا مجال لحدوث غير ذلك ولو على سبيل الافتراض والخيال.

وفي (تحولات .. أعشاب الرماد)[١] يقول البردوني:

تُصيخُ إلى شيءٍ يجـادل هجـعتي ومن أي ذراتي ينادي مجـــــادلي؟
أحـــس بقلبي الآن ركـــض ولادةٍ عن الصمت يلهيني، عن الرعب شاغلي
أبيني وبيني ثـالث اسمـــه أنا ؟ أمني أتى غيري؟ أيبدو مشـــاكلي؟
تحولت غائيًّا، من الموت أبتـــدي إلى غاية أعلى، ستُضـحِي وسائـــلي
أللمـــرء ميـــلادٌ يموت ومـــولدٌ بلا أي حـــد ؟ ما الذي يا تســـاؤلي
أصوتى سوى صوتي؟ أجرب صيحة هنا مولدي يا فجـــر، قبِّل خمائـــلي

وهنا ينتصر البردوني مرة أخرى للذات التي تنتفض داخل صاحبها ليقيم عليها الحوار المبتور شكلًا مكملا الدائرة الحوارية بميلاد ذوات جديدة تتوالى بينهم التساؤلات التي إن لم تجد جوابًا تعرفنا بالأشياء والوقائع التي تتخلق منها الذات لتصنع جديدًا مريدة للبقاء نائية عن مجرد النفعية التي تقوم عليها العلاقتان (أنا – أنت) و (أنا – هو).

٥- حوار الصوامت:

الحوار سلوك عقلاني يقوم على مبدأ التعاون لإظهار مقاصد المشاركين سواءً أكانت مقاصد صريحة أو خفية تقوم على اتفاق ضمني بين المتخاطبين حيث ينطلق أيهم في الحوار عن خلفية لا يصرح بها ولكن يتبلور دورها في مدى إنجاح العملية الحوارية، "فعندما يتفاعل شخصان، فإنهما يقيمان علاقات ذاتية ويتبادلان المعلومات، ويجري التبليغ أو التواصل في ذات الوقت على مستويين، أو لنقل إنه يكتسي وجهين اثنين: الوجه العلائقي، الذي يبرز من خلال النبرة والحركة والإيماءة. ووجه المحتوى، الذي يتعلق بالمعلومات الفكرية والمعرفة المجردة"[٢] فلكل

(١) المصدر السابق، ص: ٩٤٦.

(٢) التداولية.. البرجماتية الحديثة (خطاب ما بعد الحداثة): حفناوي بعلي، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، العدد: ١٧، ص: ٥٨.

طرف من أطراف الحوار الاستراتيجية اللغوية الخاصة به كبنية ثانوية، والتي تسعى إلى إتمام العملية الحوارية،كبنية أولية، أو العزم على بترها وعدم إتمامها أيضًا.

في تحول العلاقة من (أنا – أنت) إلى علاقة (أنا – هو) منتهى فشل العلاقات الحوارية فهي علاقة وسطى تمثلها النفعية (البرجماتية Pragmatism) التي تبوء بخسران القيم الإنسانية ومن ثم خسران الذات وتبقى الحقيقة الزائفة التي يرفضها الجميع على الإطلاق والتي يصعب التحول معها من جديد إلى علاقة (أنا – أنت) ويبقى (هو) وحده فتتلاشى الذات. وبسحب هذه المقولات على نموذج شعر البردوني نراه يتخذ من محاورة (هو) وإثبات وجوده وسيلة لإشفاء جراحات الماضي.

ينتقل البردوني بالمحادثة من شكلها الطبيعي القائم على ضرورة وجود العنصر البشري (أنا – أنت) أو (أنا – هو) إلى كونها تتسع لتشمل المخلوقات الأخرى بل تقوم بأكملها على العناصر غير البشرية (هو – هو) كما هو الحال في قصيدة (بين الجدار وجدار)[١]

هذا الجدار يقول لي ... ويعي — همسي، ويصغي للريـــاح معي
يرنو إليَّ، كصمت مملكـة ... — للطيف تهمس: مات مجتمــعي
ويشم مأساة تقطـــــــعني — وأشم في مأساتـــــه قطـعي
يحكي بلا صوت، وأسمـــــعه — أهذي وأصمت، وهو مستمــعي
يبكي كما أبكي، يساهـــــرني — أغفو، رؤى عينيه مضطجــعي

فمنذ أول وهلة نرى الشاعر قد حبذ إدارة الحوارية بين جدارين معرفًا أحدهما بالـ ومنكرًا الأخر، ويبدو أن الشاعر يقصد ذاته بالنكرة ويقصد الآخر بالمعرفة وكلاهما يحيل إلى أحد المجسمات الصماء الممثلة في الجدران، ولعل وراء هذا التخصيص بالتعريف والتنكير دلالة يسعى الشاعر إلى تبيانها لقارئه فبديهي أن التعريف يشير إلى عظم القدر والتنكير يحيل إلى شدة القرب وبسحب هذه الدلالات على الحالة الحوارية التي لا تقوم على العناصر البشرية، نرى مدى أهمية هذا النوع من المحادثات التي قصد إليها الكاتب وسعى إلى تجسيدها في قالب حواري واجب القبول، حيث جاء الحوار عن الصمت وبين صوامت. فنحن نرى أنفسنا أمام أحد عروض البانتوميم التي يُدخل بها البردوني القاريء بخياله في عالمه الخاص الذي يجسد فيه الأفعال التي يقتطعها الحوار الصامت، مصممًا

(١) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: بين الجدار وجدار)، من ديوان: زمان بلا نوعية، ص:٨٨٥.

القاريء لذاته الموسيقى والإضاءة والديكور... صانعًا عملا تعبيريًا يستطيع به أن يجسد أدق الحالات النفسية للكاتب.

من أين جئنا ياجدار؟ أنـــا منك انبثقت، وجئت من وجعي
أورقت في نجواك جمر هوًى وهجست كالميعاد في ولـــعي
وهنا التقينا، كنت مُصطنَـعًا وأنا كـــلا شيء، كمصــطنِعي
مسعاك لا صحو ولا مطـــر والعقم مصطافي، ومـــرتبعي
أتخاف مثلي ياجـــدار؟ ولا تدري، وأبدو لا أعي فـــزعي
كالناس أنت؟ ولا يرى أحـد توقي إلى ريي، إلى شـــبعي
من كل خاو صغتني، وكـما أنبتني، أثمرت مبـــــتدعي

.....

شكلتني بأجـــد هندســـة ولبستني كعباءة (البرعـــي)

وهنا يدور الحوار من جديد بين الجدار وجدار معتمدًا على التساؤلات التي لا تلقى جوابًا، فإلام يحيل الحوار بين الصوامت التي تجسدت عن طول حوار سبق بغير جدوى حتى حال إلى الصمت الذي حولنا من بشر صوامت إلى مجرد جوامد، ومن ثم يوثق الكاتب الحال الجديد بتواتر الانتفاءات (لا صحو – لا مطر – لا تدري – لا أعي – لا يرى)، التي تدل على تغييب الوجود الإنساني الذي أفضى إلى رؤية ذواتنا جدرانًا، فالشاعر يبحث فيما وراء رحلة هذا التحول التي فوجيء بها وصارت هي الأصل.

٦- فلسفة السكوت:

ثمة فارق كبير بين الصمت والسكوت، فالصمت ضرورة تقابل البوح غير المجدي ويمارسها الفرد بكامل رغبته حتى إشعار آخر، أما السكوت فهو آخر مراحل الصمت الماثلة في قسوته التي إن لم تنبأ عن عاصفة تتحول إلى ممارسة تُفرض على الإنسان بالقوة والإكراه ويجبر عليها الفرد إجبارًا، حتى ينتهى الأمر بالموت كائنيًا لا جسديًا والأول أقسى وأمر. هنا نرى أن الصمت يقتل الواقع أو يغيره أما السكوت فهو يحييه ويمنحه الفرصة للاستفحال والبقاء ونقصد هنا الوقائع السياسية والاجتماعية التي تعيشها الشعوب العربية قبل أكثر من ثلاثين عام مضت.

الصمت لغة أعم وأشمل من الكلام فهو لا يعني السكون، بل هو رسالة لها معنى معين قد يصل بمجرد الإشارة والإيماء دون التلفظ، وقد يأتي بمثابة اللحظات التي تسبق ضجيج العصف، فهو مشروع مؤجَل يعبر عن

موقف الرفض والخروج على الوضع الراهن، فقد رأى الجرجاني أن البلاغة في الصمت فيقول "إنك ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة؛ وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن..."[١]. أما السكوت يعبر عن الإقرار والقبول فقط وهو ما يسعى البردوني إلى تغييره محاورًا ذويه موبخًا لهم ومؤكدًا أن السكوت حالة خارجية يكمن تحتها بركان الحنين، وهو المحرك الأول للتحول بالساكتين إلى الصمت المعبر ومنه إلى النطق والتعبير. فقد استعمل صيغة الأمر (اسكتوا) لا للتقرير بل للإستهانة من فعل السكوت والدعوة إلى ضرورة الخروج عليه.

اسكتوا... إنما حفيد (النـــجاشي) يلبس اليـــوم (حميرًا) و (معينا)
باسم من تنطقون؟ تخشون ماذا؟ من يغذي نبوءة الكاذبيـــــــنا؟
كيف عادت (أزاد) بالحب تـــردي وتسن الطلاق بالموت: ديـــــنا
يسكن المخبرون صوت المضحي يستعير الجنون وجهًا رزيـــــنا
اسكتوا ... إنما تنـــوب الزوايـــا باسمنا تطبخ السقوف أنيـــــنا

.....

إننا ما نـــزال طيـــــنًا محـــمى يحمل الباردين: صخرًا وطيـــــنا
لا سوى الطين بعضه فوق بعض لا نرى تحته سوى ما يـــريـــنا
وعلينا نرى الســـباع حمامًـــــا ونسمي سود الحصى، ياسمينـا
وعلينا أن نستكـــــين ونـــوصي كل خفق في القلب أن يستكينـا
ولنا أن نمـــوت كيف أردنـــــــا إنما من يميت فينا الحنيـــــنا؟[٢]

---

(١) دلائل الإعجاز: الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (٤٧٤هـ)، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: ١٤٦.

(٢) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: الحبل العقيم)، من ديوان: زمان بلا نوعية، ص: ٨٤٧ – ٨٤٩.

حمير: تأسست مملكة حمير حوالي عام ١١٠ قبل الميلاد، وأسس الحميريون عاصمتهم في ظفار وهي الآن مجرد قرية صغيرة في منطقة إب، واستمرت المملكة من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وسرعان ما أصبحت إمبراطورية كبيرة وسيطرت على أجزاء مهمة من شبه الجزيرة العربية وخاصة بعد أن غزا الحميريون مملكة سبأ، واستمرت عاصمة مملكة حمير ظفار حتى القرن الرابع الميلادي، وبعدها انتقلت العاصمة إلى صنعاء وهي أيضًا عاصمة اليمن الحديث

معين: هي مملكة عربية جنوبية قديمة ازدهرت ما بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد في ما يعرف الآن بشمال اليمن، حيث قامت في منطقة الجوف بين حضرموت ونجران بسبب مميزات المكان الجغرافية والمناخية، وأسست عاصمتها في

وهنا يجسد البردوني صراعًا بين قوى التفكير وقوى المشاعر لدى الساكتين لا لينتصر أحدهما على الأخر، بل لينتصر أحدهما بالآخر، ولعل في المشاعر الإنسانية الغلبة على التفكير، فتقوده إلى الاشتغال. فمهما رضي الإنسان واكتفى بالسكوت فلابد من أن تأتي لحظة ينتفض فيها راجيًا التحرر من القيود التي صنعتها القوى الجبارة في الأرض كالمستعمر والسلطة فهو في الأصل كائن يدرك لا يصمت إلا ليعي ويعبر ليغير ويظل.

من ذا يصوت من هناك ويختفي؟ ماذا هناك؟ دم يشع وينطـــــفي
بـاب إلى ثـــان، يـــدب وينثني ركن كدالية ترف ولا تـــــــفي
جثث تسير بلا رؤوس، حـــــارة تقتات سرتها، وفيها تغـــــتفي
دار تهامس: كم ظمئت وعندمـــا كثرت كؤوسي، ضاع مني مِرشـفي
حجر بلا فخذين يزحف حامـــلًا نهديه في يده أيا ريح اقطـــــفي
سكران، تعجب نفسُه من نفسِـــه كيف اعتصرت حبيبتي ومُعـــنِّفي
مشروع فلسفة ... يصيح سكوتـه إني أنضج في حشاي مفلســـفي
إني أفتش في أواخـــر منكـــبي عن نصف جمجمتي، وأول أحـــرفي
رَجـــعٌ نواسي: أدارُ (زُبيْـــــدة) رحلت ... غدت من معتفيها تعتفي
كلٌّ حكى ... أحكي، أتدري يا هنا أني كتاب جئت قبل مؤلـــــــفي[1]

فمرة ثانية يسعى البردوني إلى إيقاظ السكوت الذي تجسد في أغوار محاوريه وتفعيله ليصل به إلى حد الصياح، فبعد سرده لكل أشكال السكوت التي وصلت لها البلاد بفعل موبقات الزمان يقول هلموا مرة أخرى إلى الإسماع والافصاح عما انطوت عليه سجلاتنا ودفاترنا الحياتية، وفي ذلك ما يؤكد على مبتورية الحوار رغم وجود الشخوص المحاورَة التي أصمها الموقف فصارت بلا جسد وبلا هوية فرآها الشاعر عبثًا وبحث عنها في الحارات

مدينة قرناو المعروفة الآن باسم صعدة، واستمرت المملكة من حوالي ١٢٠٠ إلى ٦٥٠ قبل الميلاد، كان المعينيون من كبار تجار البخور ورجع ازدهارها إلى تجارة اللبان والتوابل. www.hadaarah.com ، اكتشف أين ازدهرت حضارة سبأ ومعين وحمير: يرال الزعبي، تاريخ النشر: ٣٠ يونيو ٢٠٢١، آخر تحديث: ٣ يناير ٢٠٢٢.

أزاد: اسم زوجة (الأسود العنسي) الفارسية التي قتلت زوجها بالسم تنفيذًا لأوامر قومها، وفي البيت إشارة إلى الخيانة من الداخل. انظر:ذيل القصيدة، ديوان البردوني، ص: ٨٥٠.

(١) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، (قصيدة: فكريات رصيف متجول)، من ديوان: زمان بلا نوعية، ص: ٨٧٨.

والدور والحجارات المترامية على الأرصفة... فضاعت حرية القول التي تمثل أهم شروط إقامة الحوار وضمان مشروعية إكتماله.

وبعد أن يسائل الشاعر الصوامت عن صمتها ولا جدوى يفصح الصمت ذاته، فيقول في (دوي الصمت)[١]:

ما الذي يدوي هنا؟ لا شيء يبدو كان يبكي الصمت للصمت ويشدو
كان ينســـــاق جدار مـــــوثق بجدار ... وأنين الطين يحـــــدو

.....

تخرج الأشياء من أوجـــــــهها ترتدي أخرى، ووجه الحــزن فرد
وتقـــــول الريح للريـــح: إلى أين جئنا؟ وإلى أين ســـــــنغدو؟

فهاهو الشاعر يقر بعلو قيمة الصمت، وإن كان في الأصل إعلان لإنهاء الحوار أو عدم الشروع فيه، على قيمة السكوت، التي تكمن في العدمية، مؤكدًا أن للصمت صوت جهير يملأ صفحات البوح الفارغة، فما السكوت إلا جهل وما الصمت إلا تعقل. فمن قبل شخَّص الشاعر من صوامت الأشياء ناطقين لهم من البلاغة والفصاحة مالهم ولا يزال يمتد بعرض حوارات الصوامت دون الصوائت حتى أنطق الصمت ذاته ليستشفى، فمهما طال الصمت فهو فاضح؛ ساعيًا من وراء ذلك إلى تخليد الذات الإنسانية رغم المقامع التي غُلَّت بها. فمرة أخرى يتحول الشاعر بالسكوت، الذي يشبه حال ذويه بحال الموتى، إلى الصمت الناطق المرهب والماثل في اضطرام جمر الثورة فالمخمد جسد ولسان والباقي صوته الماثل في ترجمات صمته المرعبة.

أسكن كالمـــوتى يا أحـــــمق نم ... هذا قبر لا خنـــدق
لا فرق لديك. نجـــــوت إذن واخترت المتـراس الأوثـــق
تدري ما الموت؟ ألا تغـــــفو؟ أقلقت الـــرعب وما تقلـــق
هل تنـــــسى قتلـــتك الأولى؟ وإلى الأخرى تعدو أشـــوق
من ذا أحياك أعيـــــــــدوه؟ أعييت الشـرطة والفيـــلق
هل كنت دفينًا؟ لا سمـــــــــةٌ للقبر ولا تبدو مرهـــــق[٢]

(١) المصدر السابق، (قصيدة: دوي الصمت)، ص: ٩١٧.

(٢) ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، من ديوان: زمان بلا نوعية (قصيدة: السلطان.. والثائر الشهيد)، ص:٩٠٨

الخاتمة والنتائج

لقصدية إقامة الحوار معايير شتى لابد أن تؤخذ في حسبان الأطراف المتحاورة حتى تنتظم العلاقة وتكتمل، ولعل أهم هذه المعايير هو التنوع الأسلوبي الذي يدفع الملل ويحفظ للحوار إثارته، ونقصد بالتنوع التحرك بين الأساليب، فبدون هذه التقنيات لم يبدأ الحوار من الأصل ولعل في ابتداء الحوار قوة لا يملكها إلا جدير مستخدمًا أساليب الاستفهام أو النداء أو التوصيف الذي يستدعي التدبر... وغير ذلك، ومن ثم ترجع الأفضلية لمن ابتدأ الحوار قبل رجوعها للمنوط بالرد لأن الأول هو الذي يتقن فن إدارة الحوار. وبسحب هذه المقولات على حوارية الشاعر عبد الله البردوني التي اختصت بها هذه الورقة البحثية، استطعنا أن نصل معه إلى سياق حواري مخالف للسياق المعتاد القائم على ضرورة الأخذ والعطاء، وذلك برصدنا اعتماده في الكثير من النصوص على الحوار المبتور بين شخوص حكيه، فوجدنا أنه أقام نوعين من الحوار – على خلاف شكله السردي القائم بين الشخصيات – الأول بينه وبين متلقيه وتلك هي العلاقة المكتملة، والثاني بين ذاته الضمنية ومجسداته (الصمت – الريح – الجدران – الموتى – الذات ...) محاولا في ذلك الانتصار لتلك الذات التي تريد أن تنفض عن نفسها غبار الانصياع لما هو دونها، متنفسة نسيم التحرر.

استطاع البردوني أن يخرج على سمت الأساليب الحوارية؛ فارضًا عليها فلسفة من نوع خاص واضعًا لذاته المعايير الجديدة مثل أن يَلقى السؤال سؤالًا لا جوابًا ويقنع المتحاوِر بأن في متتالية السؤال تكمن الإجابة ومن ثم يقف الأخير موقف الذي يختار بين التسليم أو التغيير. وكذلك في التلاعب بأسلوب النداء الذي تنتظم مكوناته من أداة النداء والمنادى ودوافع النداء قامعًا تلبية النداءات متأرجحًا بغاياتها بين الاستنكار والتقرير والتعجب ... فلم يعد الحوار معه يسفر عن إيضاح قدر ما يسفر عن خلق حوارات بحاجة إلى التدقيق ومن ثم يظل الحوار ناقصًا بحاجة إلى ملء فراغاته، فكلما تأهب المحاوَر للرد داهمه المحاوِر بما يجعل الأول يمعن التفكير حتى يقف معه على قدم المساواة في البحث وراء الذات والانتصار لها. وفي وجهة فلسفية جديدة يجعل البردوني من الصمت منبرًا للحديث وذلك بإقامة الصراع بين الصوامت وداخلها لتغليب قوة المشاعر على قوة العقل وإعمال الثانية لحساب الأولى دعوة منه لعودة الحوار الهادف بما أوتي من قوة تمكن من كسب الذات الإنسانية قيمتها، فثمة عودة للعلاقة الحوارية القائمة على الذوات (أنا – أنا) و (أنا – أنت) بعد أن دثرتها القوامع واختزلتها في العلاقة (هو – هو) التي تفصح عن حوار الصوامت غير المجدي وإن كان جادًا.

اعتمد البردوني مجموعة من التقنيات أكدت للدراسة على مبتورية حواریاته الخاضعة لفلسفة من نوع خاص، وقد رصدتها الدراسة كالتالي:

١- توالي الاستفهامات وتنوع دلالاتها التي تتعدى مجرد الجواب إلى التماهي بين تجاوز الجواب والإقرار بما هو واقع.

٢- إقامة الحوار بين الذات ودواخلها، فمن أين تأتي الحرية التي تُغَلِّب الصوت على الصمم والمحاوَر مقموع ممسوخ بلا جسد ولا هوية.

٣- إقامة الحوار بين الصوامت، وذلك بتجسيدها في صورة شخوص أصمها الموقف.

٤- إثبات حضور الذات في إدارة الحوار وإن اكتفت بآنيتها دون الآخر، وإقحامها إلى داخله بالانزياح بها عن مجرد كونها طرف في الحوار إلى كونها موضوعه الرئيس.

المصادر والمراجع:

١. ديوان عبد الله البردوني (الأعمال الشعرية)، المجلد الثاني، ديوان: زمان بلا نوعية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٢. البردوني (شاعر الأسئلة): د/ عز الدين إسماعيل، مجلة الكويت، العدد: ٢٢٧، سبتمبر ٢٠٠٢م.

٣. التداولية.. البرجماتية الحديثة (خطاب ما بعد الحداثة): حفناوي بعلي، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، العدد: ١٧.

٤. التقنية – الحقيقة – الوجود: مارتن هيدجر، ترجمة: محمد سبيلا وعبد الهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

٥. حوار الحضارات: المفهوم والمقومات: عبد الملك منصور المصعبي، ضمن أعمال ندوة موقع الإسلام في القيم الكونية وحوار الحضارات، تونس، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعة الزيتونة، ٢٠٠٥م .

٦. الحوار مع الغرب آلياته – أهدافه – دوافعه: أ.د/ منى أبو الفضل، د/ أميمة عبود، أ.د/ سليمان الخطيب، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨م.

٧. الخطاب الروائي : ميخائيل باختين، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط: ١، ١٩٧٨م.

٨. خطبة سقراط الأخيرة (أول من أعدم في التاريخ بسبب أفكاره): روان الفريح، نشرات ثمانية البريدية، ٤ أكتوبر ٢٠١٨م، www.thmanyah.com

٩. دلائل الإعجاز: الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (٤٧٤هـ)، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٠.شعرية دوستويفسكي: ميخائيل باختين، ترجمة: د/ جميل نصيف التكريتي، مراجعة: د/ حياة شرارة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

١١.عبد الله البردوني الشاعر البصير (دراسات وأبحاث): مجموعة من الكتاب، سلسة الندوات (٢١)، الطبعة الأولى، دبي ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٩م.

١٢.الفلسفة الإغريقية: عبد الرحمن بدوي، مطبعة المعارف، بيروت، ١٩٩٨، ص: ٢٢. انظر أيضًا: مفهوم الذات لدى الفلاسفة: سعد عزيز دحام، الحوار المتمدن، ضمن محور: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، العدد: ٣٣٥٧، ٢٠١١م

١٣.فلسفة السؤال: ما هو السؤال؟: لاني واتسون، ترجمة: مي العصيف، تحرير: عبير الغامدي، أثارة، ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠م، https://atharah.com/what-is-a-question

١٤.قضايا الشعرية: رومان جاكبسون، ترجمة: الولي محمد ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م.

١٥.لسان العرب: الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري الأنصاري الخزرجي(٦٣٠- ٧١١هـ)، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الميرية، بولاق، مصر، ١٣٠٠هـ.

١٦.مارتن بوبر (حياة الحوار): موريس فريدمان، مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٥٥، ص: ٨٥.

١٧.مارتن بوبر وعلاقة "أنا وأنت": كيف ترشدنا أفكاره في رحلة الشفاء النفسي: ماثيو مارتن وإيريك كومان، ترجمة: دعاء شاهين، ٢٨ أكتوبر ٢٠٢٠م، https://mana.net

١٨.مارتن بوبر وفلسفة الحوار: عبد الله المطيري، الشرق الأوسط (جريدة العرب الدولية)، (١٩ إبريل – ٢٠١٤م)https://aawsat.com/home

١٩.ميخائيل باختين (المبدأ الحواري): تزفيتان تودوروف، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٦.

٢٠. اكتشف أين ازدهرت حضارة سبأ ومعين وحمير: يرال الزعبي، تاريخ النشر: ٣٠ يونيو ٢٠٢١، آخر تحديث: ٣ يناير ٢٠٢٢، www.hadaarah.com